الفصل الرابع

المعرفة بين الصوفية والفلاسفة

obeikandl.com

obeikandl.com

المعرفة

تمهيد:

لقد كان سعي الصوفية دائماً، وحسبما تقره نصوصهم إلى معرفة الإله ثم الاتحاد به. وكان الجوع والقضاء على اللذات الحسية طريقهم إلى ذلك. وهذه هي عينُ المساعي التي سعى لها الفلاسفة الإلهيون بل هذا هو جوهر الفلسفة الذي يستنتج من تعريفاتها عند الكثير من الفلاسفة.

فقد عرفها أفلاطون بأنها التشبه بالإله بقدر الطاقة الإنسانية [١].

ونقل «جميل صليبا» عن أفلاطون تعريفاً ثانياً مشابهاً: إذ اعتبر من الحكمة جهاد النفس في اعتناق البر والفضيلة والتشبه بالله على قدر ما أتيح للإنسان بلوغه[٢] ونقل الشيخ عبد الحليم محمود [٣]: أن المثل الأعلى لمن يطلب الحكمة هو ما عبر عنه أفلوطين في كلمة موجزة بالغة العمق يقول: هي: الكشف عن الإله ثم الاتصال به[٤]، ثم عقب بعد أسطرٍ قائلاً: «الكشف عن الإله ثم الاتصال به، ذلك هو المنهج الوحيد المتكامل الذي لا مناص منه لمحبي الحكمة والمؤثرين لها» [٥] ثم يستخرج الشيخ عبد الحليم محمود تعريفاً خاصاً به للفلسفة فيقول: (إنها المحاولات التي يبذلها الإنسان عن طريق العقل والتصفية

---

(١) فكرة الألوهية عند أفلاطون/ د. مصطفى النشار ـ ص ٨٤ الدار المصرية السعودية للنشر/ط١ / ٢٠٠٥ والنص منقول عن خاتمة كتاب ما قبل الفلسفة ترجمة: جبرى إبراهيم جبرى، مراجعة محمد الأمين.

(٢) تاريخ الفلسفة العربية/ جميل صليبا/ ص٤٦/ ط ١٩٨٦.

(٣) هو الشيخ عبد الحليم محمود المولود عام١٩١٠ في قرية (عزبة أبو أحمد) التابعة لمحافظة الشرقية حصل على الدكتوراه من فرنسا١٩٤٠ عمل أستاذاً للفلسفة في كلية أصول الدين ثم عميداً للكلية. تعمق في دراسة التصوف فكان صوفيًا روحانيًا عجيبًا توفي عام ١٩٧٨ /نقلاً عن تتمة الأعلام للزركلي /محمد خير رمضان يوسف/ ١ / ٢٧٠ دار ابن حزم.

(٤) التفكير الفلسفي في الإسلام/ عبد الحليم محمود ص٢٤١.

(٥) نفس المصدر ٢٤٢.

ليصل بها إلى معرفة الله)[١] .

ويرى أن هذا التعريف ينطبق تماماً على أبي حامد الغزالي وعلى كبار الصوفية الإسلاميين فيقول : وإذا كان ذلك صحيحاً بالنسبة للإمام الغزالي فهو أيضاً صحيح بالنسبة لكبار الصوفية الإسلاميين. إنهم جميعاً حققوا الكشف عن الإله ثم الاتصال به إنهم فلاسفة كاملون [٢] .

وعرف الجرجاني الفلسفة بقوله: الفلسفة هي التشبه بالله بحسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية كما أمر الصادق ﷺ تخلَّقوا بأخلاق الله ، أي تشبهوا به في الإحاطة بالمعلومات والتجرد عن الجسمانيات [٣] . وعرفها من الفلاسفة العرب « الكندي » بقوله: الفلسفة هي محبة الحكمة لأن فيلسوف مركب من « فيلا » وتعني مُحب و« سوفيا » وتعني الحكمة أما من حيث تأثيرها فيقول: هي التشبه بأفعال الله بقدر طاقة الإنسان ـ وأما من حيث غايتها فهي عنده: العناية بالموت.

والموت عندهم (أي الفلاسفة) موتان:

[١] **طبيعي** : وهو ترك النفس استعمال البدن.

[٢] **إماتة للشهوات**: وهو الموت الذي قصدوا إليه لأن إماتة الشهوات هي السبيل إلى الفضيلة، ولذلك قال كثير من أجلَّة القدماء : اللذة شر[٤] .

يقول أبو الفرج بن الطيب في كتابه تفسير (ايساغوجي)(لفرفوريوس): إن هذين الحدين منقولان عن أفلاطون.

والفلسفة عند إخوان الصفا هي: تشبه النفس بالإله بحسب الطاقة الإنسانية [٥] .

---

(١) نفس المصدر ٢٤٣ . (٢) نفس المصدر ٢٤٣ .

(٣) التعريفات/ علي بن محمد بن علي الجرجاني/ ت إبراهيم الإبياري ـ دار الكتاب العربي بيروت ط١ سنة ١٤٠٥هـ.

(٤) نقلاً عن موسوعة الفلسفة/ د. عبد الرحمن بدوي ـ ٢/ ٢٩٩ ، وانظر التفكير الفلسفي في الإسلام لعبد الحليم محمود ص ٣٠٨ .

(٥) تاريخ الفلسفة في الإسلام/ ت.ج. دي بور/ تعريف محمد عبد الهادي أبو ريدة ص١٦٢ ط٥- ١٩٨١ ، دار النهضة العربية .

الفلسفة (أو الحكمة) عند الصوفية

يحاول الأكثر من مشايخ الصوفية الابتعاد عن لفظ الفلسفة لأنهم لا يرغبون في كشف هذه العلاقة غير الحميدة بين الفلسفة وخصوصاً اليونانية منها وبين التصوف لذا يستعاض في التصوف عن ألفاظ بديلة تؤدي إلى ذات النتيجة بيد أن هذا لا يعني انعدام وجود تعريفات للفلسفة عند الصوفية إنما يعني قلتها.

فقد نقل الشيخ عبد الحليم محمود تعريف ابن عطاء السكندري[١] تعريب الفلسفة ثم تعريفها. فقال: هي الحكمة.

ثم قال: إن الحكمة هي معرفة الله. ويثني على رأي ابن عطاء قائلاً: فإن الرأي الذي نراه هو ما قال به ابن عطاء[٢]. ويبين أبو عثمان الهجويري أن التصوف هو المعرفة: فيقول: فاعلم أن أساس التصوف والمعرفة قائم على الولاية. ويقول «ابن عجيبة»[٣]: وأما موضوعه (أي التصوف) فهو الذات العلية لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها إما بالبرهان أو بالشهود والعيان[٤].

ويقول ابن الخطيب ومحصول السعادة عندهم (أي الصوفية أن ينكشف الغطاء وتظهر للعارف آنية الحق وأنه عين آنية كل شيء ويعقل آنية ذاته وما هي عليه، و من عَرِف نفسه فقد عرف ربه[٥].

---

(١) ابن عطاء الله الإسكندري: هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل ـ لقبه تاج الدين ـ صوفي شاذلي، كان من أشد خصوم ابن تيمية، له في التصوف الحكم العطائية ولطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن توفي بالقاهرة سنة ٧٠٩ للهجرة/ انظر الأعلام للزركلي.

(٢) التفكير الفلسفي في الإسلام ٢٣٠.

(٣) ابن عجيبة هو أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة مفسر صوفي من أهل المغرب، ولد في سنة ١١٦٠للهجرة له البحر المديد في تفسير القرآن المجيد و في التصوف شرح القصيدة المنفرجية وشرح صلوات ابن مشيش، توفي في بلدة أنجرة بين طنجة وتطوان سنة: ١٢٢٤للهجرة/الأعلام للزركلي.

(٤) الكشف عن حقيقة الصوفية ص٢٨٧.

(٥) روضة التعريف بالحب الشريف ص٦١١ وانظر الكشف عن حقيقة الصوفية ص٢٩٩.

وبمثل هذا وبعبارة ألطف قال أبو حامد الغزالي ما نصه: "اعلم أن سعادة كل شيء ولذته راحته. و لذة كل شيء تكون بمقتضى طبعه وطبع كل شيء ما خلق له فلذة العين في الصورة الحسنة ولذة الأذن في الأصوات الطيبة... ولذة القلب بمعرفة الله سبحانه وتعالى لأنه مخلوق لها وكل ما لم يعرفه ابن آدم إذا عرفه فرح به مثل الشطرنج إذا عرفه فرح به ولو نهي عنه لم يتركه ولا يبقى له عنه صبر وكذلك إذا وقع في معرفة الله سبحانه وتعالى وفرح بها لم يصبر عن المشاهدة لأن لذة القلب المعرفة وكلما كانت المعرفة أكبر كانت اللذة أكبر... و ليس موجود أشرف من الله تعالى لأن شرف كل موجود به ومنه فلا معرفة أعز من معرفته ولا لذة أعظم لذة من معرفته وليس منظر أحسن من منظر حضرته[١] .

تعريف المعرفة:

اهتم أهل التصوف والفلاسفة جميعاً بالمعرفة،وربما ظهر هذا الاهتمام عند الصوفية بشكل واضح المعالم. فمن رقى عندهم في طريق التصوف يسمى العارف بالله .وبنوا جُل علاقة العبد بالرب على المعرفة من جهة اصطلاحية سيأتي بيانها .

لهذا كان لابد من الحديث عن المعرفة وحدها. لغة ثم اصطلاحاً عند الفريقين.

أما لغة : فقال في لسان العرب: العرفان العلم قال بن سِيْدَه وينفصلان بتحديد لا يليق بهذا المكان[٢] .

وقال في القاموس المحيط :

عرفه يعرفه معرفة وعرفاناً بالكسر وعرفاناً بكسرتين مشددة الفاء علمه [٣] .

وقال في معجم مقاييس اللغة:

العين والراء والفاء أصلان صحيحان يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلاً

---

(١) رسالة كيمياء السعادة ــ أبو حامد الغزالي ص١٣٩+١٤٠ .

(٢) لسان العرب ٩ / ٢٣٦ .

(٣) القاموس المحيط ١ / ١٠٨٠ .

بعضه ببعض والآخر على السكون والطمأنينة... والأصل الآخر (المعرفة) والعرفان : تقول عَرِفَ فلانٌ فلاناً عرفاناً ومعرفة وهذا أمر معروف، وهذا يدل على ما قلناه من سكونه إليه لأن من أنكر شيئاً توحش منه ونبا عنه.

وهذا يعني : أنه تم تعريف المعرفة من خلال بيان ضدها. وهو الإنكار وهذه نتيجة تعقب المعرفة وليس المعرفة ذاتها [١].

وبتتبع معاجم اللغة عموماً وجدناهم يعرفون المعرفة بالعلم ، والعلم بالمعرفة ولم يظهر لنا لغوياً ما يُشفي الغليل ، وربما كان مرد هذا الأمر إلى ما أشار إليه شيخ الإسلام ابن تيمية بأن منهج العرب في تعريفهم للأشياء الاكتفاء بتقريب الشيء المعرف إلى الجاهل عن طريق ذكر ضده أو مقارنة المعروف دون الغوص إلى الماهيات كما يفعله الفلاسفة [٢].

الأمر الذي دفع بالبحث إلى الاتجاه نحو التعريفات الاصطلاحية سواء عند أهل اللغة أو أهل المعرفة (المتصوفة) وأهل الفلسفة.

تعريف المعرفة اصطلاحاً : [٣]

[١] **قال في التعريفات:** المعرفة إدراك الشيء على ما هو عليه وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم ، ولذلك يُسمى الحق تبارك وتعالى بالعالم دون العارف [٤]. ولكن الجرجاني عندما عرف الذوق ذكر خلال التعريف معنى اصطلاحياً آخر للمعرفة فقال: الذوق في معرفة الله عبارة عن نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه يفرقون به بين الحق والباطل من غير أن ينقلوا ذلك عن كتاب أو غيره[٥].

---

(١) مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي / عبد الرحمن بن زيد الزنيدي ص٣٦ .

(٢) الرد على المنطقيين. / شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية.

(٣) لمزيد من الاطلاع على مسألة المعرفة يمكن مراجعة رسالة الدكتوراه المطبوعة والموسومة (مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي) للدكتور عبد الرحمن بن زيد الزنيدي ففيها مزيد فائدة.

(٤) التعريفات ١ / ٢٨٣ .

(٥) التعريفات ١ / ١٤٤ .

[٢] **وقال في الحدود الأنيقة:** المعرفة ترادف العلم وإن تعدت إلى مفعول واحد وهو (أي العلم) إلى اثنين، وقيل: تفارقه بأنه لا يستدعي سبق جهلٍ بخلافها [١] .

[٣] **وقال في التوقيف على مهمات التعاريف:** العرفان كالمعرفة إدراك الشيء بتفكر وتدبر ، فهو أخص من العلم ويقال فلان يعرف الله ولا يقال فلان يعلم الله لما كانت المعرفة تستعمل في العلم القاصر المتوصل إليه بتفكر ، ويضاد المعرفة الإنكار، والعلم الجهل، والعارف المختص بمعرفة الله ومعرفة ملكوته وحسن معاملته تعالى[٢] . ولعل هذه التعريفات تقترب بالبحث خطوة صغيرة نحو الأمام. فقد استشف منها أن المعرفة هنا متعلقة بالعلم الإلهي.

[٤] **وقال في موسوعة « كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم »:** المعرفة (**Cannassance**) (تطلق على معان منها العلم بمعنى الإدراك مطلقاً، تصوراً كان أو تصديقاً... قال في مجمع السلوك: المعرفة لغة العلم الذي تقدمه نكرة ، وفي عبارة الصوفية العلم الذي لا يقبل الشك إذا كان المعلوم ذات الله تعالى وصفاته، ولا تطلق المعرفة على الله تعالى لأنها في الأصل اسم العلم كان بعد أن لم يكن وعلمه تعالى قديم [٣] .

ما هي المعرفة عند المتصوفة؟ :

قال في معجم مصطلحات الصوفية: المعرفة صفة من عرف الحق سبحانه بأسمائه وصفاته ثم صدق الله تعالى في معاملاته ثم تَنَقَّى عن أخلاقه الرديئة وآفاته، ثم طال بالباب وقوفه ودام بالقلب اعتكافه، فإذا تحققت له من ذلك

---

(١) الحدود الأنيقة ١ / ٦٦ .

(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ١ / ٥١١ .

(٣) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم/ محمد علي التهانوي/ ٢ / ١٥٨٣ ومكتبة لبنان ط١ ١٩٩٦ .

خواطر ودامت مناجاته في السر مع الله وصار محدَّثاً من قبل الحق بتعرف أسراره فيما يجريه من مصاريف أقداره يسمى حينئذٍ عارفاً وتسمى حالته معرفة.

وبمقدار أجنبيته عن نفسه تحصل معرفته بربه، ... وقيل المعرفة ثلاثة أوجه معرفة إقرار ومعرفة حقيقة ومعرفة مشاهدة وفي معرفة المشاهدة يندرج الفهم والعبارة والكلام[١].

وبسند صوفي عن أبي عباس الدينوري قال أبو حفص: منذ أن عرفت الله ما دخل قلبي حق ولا باطل[٢].

وعلق صاحب الرسالة القشيرية (أبو القاسم) على إطلاق أبي حفص هذا بقوله: وهذا الذي أطلقه أبو حفص فيه طرف من الإشكال وأَجَلُّ ما يحتمله أن المعرفة عند القوم توجب غيبة العبد عن نفسه لاستيلاء ذكر الحق سبحانه عليه فلا يشهد غير الله ولا يرجع إلى غيره[٣].

وسُئِلَ أبو يزيد عن المعرفة فقال: ﴿ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً ﴾.

قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: هذا معنى ما أشار إليه أبو حفص[٤].

وقال ذو النون المصري[٥]: معاشرة العارف كمعاشرة الله تعالى يحتملك ويحلم عنك تخلقاً بأخلاق الله[٦].

وسُئِلَ الجنيد عن العارف فقال: لون الماء لون إنائه[٧].

---

(١) الرسالة القشيرية في علم التصوف/ عبد الكريم بن هوازن القشيري/ ت هاني الحاج ص/٤١٧ المكتبة التوفيقية وانظر معجم مصطلحات الصوفية/ د. عبد المنعم الحنفي ص/٢٤٦ دار المسيرة بيروت.

(٢) الرسالة القشيرية ٤١٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) نفس المصدر.

(٥) هذا القول لذي النون هو عينه تعريف الفلسفة ـ التخلق بأخلاق الله.

(٦) المصدر السابق ٤١٩.

(٧) المصدر السابق ٤٢٠.

ومعرفة الله تغني عن العبادة عند بعض الصوفية. فقد قال عبد الوهاب الشعراني في بحث وجوب معرفة الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦)﴾ [الذاريات : ٥٦] ، قال ابن عباس إلا ليعرفوني. قال الشعراني: فكما تعلقت الرؤية به فكان مرئياً تعلقت به المعرفة فكان معروفاً [١] . ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام طويل في هذه المسألة في كتاب الاستقامة أوَّلَ «ليعرفوني» بالشهادتين فهي أولُ الطريق تتلوها العبادات. فلا عبادة بدون معرفة. أما تأويل العبادة على أنه المعرفة مآلاً فلا وجه له" .

ولعل تفسير «العبادة» بالمعرفة هو ما حدى بعض الصوفية لترك العبادة. فقد وسُئِلَ الجنيد عن أقوام يقولون أن ترك الحركات [٢] من باب البر والتقوى ، فقال الجنيد: إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيم، والذي يسرق ويزني أحسن عندي من هذا [٣] .

وقال الخوّاص[٤] : " إن من شرط العارف بالله دخول الحضرة الإلهية، وإذا دخلها رأى عقائد جميع المسلمين شارعة إليها ومتصلة بها كاتصال الأصابع بالكف ، فأقر عقائد جميع المسلمين بحق وكشف ومشاهدة ولو من بعض الوجوه" [٥] .

ويقول الشيخ عبد الحليم محمود شيخ الأزهر الأسبق:

" والمعرفة عند الفلاسفة العقليين مصدرها إذن العقل والعقل وحده، بيد أن الإمام الغزالي يرى عن تجربة أن وراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما يكون في المستقبل وأموراً أخرى كعزل قوة التمييز عن إدراك

---

(١) اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر/ عبد الوهاب ا لشعراني الحنفي ص٧٩ / دار إحياء التراث العربي / مؤسسة التاريخ العربي ط١ ١٩٩٧م.

(٢) الحركات هي العبادات بالجوارح كالصلاة والصوم والحج.

(٣) الرسالة القشيرية / ٤١٧ .

(٤) هو ابراهيم بن أحمد بن اسماعيل،كنيته أبو اسحق يعد من أقران الجنيد وأبي الحسين النوري.

(٥) اليواقيت والجواهر / ٧٩ .

المعقولات وكعزل قوة الحس عن إدراكات التمييز وهنالك إذن البصيرة وموضعها الذي ينكشف لها إنما هو الغيب" (١) .

وقال ابن عربي: " اعلم أن علومنا وعلوم أصحابنا ليست من طريق الفكر إنما هي من الفيض الإلهي" (٢) . وعقد الغزالي فصلاً في كتاب الإحياء بعنوان بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم ولا من الطريق المعتاد جاء فيه:

[قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾ من الإشكالات والشبه ﴿ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ يعلمه علماً من غير تعلم ويفطنه من غير تجربة"، ثم استشهد لذلك بكلام أبي يزيد البسطامي: " ليس العالم من حفظ العلم من كتاب فإذا نسي ما حفظه صار جاهلاً إنما العالم الذي يأخذ علمه من ربه أي وقت شاء بلا حفظ ولا درس.

علق الغزالي: وهذا العلم هو العلم الرباني وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾... واللَّدُنِّي هو الذي ينفتح في سر القلب من غير سبب مألوف من خارج "] أ.هـ (٣) .

وقال في موضع آخر من نفس الكتاب:

" اعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلوم وتحصيل ما صنفه المصنفون والبحث عن الأقاويل والأدلة المذكورة. بل قالوا: الطريق إلى تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى...و إذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة وأشرق النور في القلب وانشرح الصدر وانكشف له سر الملكوت... وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية"(٤) .

---

(١) أبحاث في التصوف / عبد الحليم محمود ٣٠٩ (ملحق مع كتاب المنقذ من الضلال للغزالي).

(٢) الكبريت الأحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر/بهامش اليواقيت والجواهر/ للشعراني/ص ٢٢٠ .

(٣) الإحياء ٣ / ٣١٨-٣١٩ .

(٤) نفس المصدر ص١٩ .

والمعرفة التي يصل إليها الصوفي (إذن) هي معرفة مباشرة بغير وسائط من مقدمات أو قضايا أو براهين[١]، إنها معرفة فوق عقلية لا يحوزها إلا من سلك سبيل التصوف وأُلهِم المعرفة المباشرة ومن هنا أيضاً تُسمَّى المعرفة كشفاً... والمعرفة بهذا المعنى تناظر ما يعرف بالغنوص (**Gnosis**) في العصر المسيحي الهليني[٢] فهذه الكلمة تدل في كتابات من عرفوا بالغنوصيين على رؤية الحق مباشرة لا من طريق البحث والبرهان[٣].

والمعرفة في اللغة العربية يقابلها من حيث المعنى الغنوص باللغة الأجنبية.

فالغنوص هو العرفان باللغة الأجنبية (**Gnose**) والكلمة يونانية الأصل (**Gnosis**) ومعناها المعرفة وقد استعملت أيضاً بمعنى الحكمة غير أن ما يميز العرفان من جهة، أنه معرفة بالأمور الدينية تخصيصاً ومن جهة أخرى معرفة يعتبرها أصحابها أسمى من معرفة المؤمنين البسطاء وأرقى من معرفة علماء الدين الذين يعتمدون على النظر العقلي[٤]... فهي طريقة تعتبر أن المعرفة الحقيقية لله هي التي تقوم على أسس روحية من خلال تهذيب السلوك للوصول إلى الكشف.

قال في موسوعة الفلسفة: " الغنوصية كلمة يونانية تساوي المعرفة أو العرفان ويمكن أن تترجم بالعرفانية وهي نزعة فلسفية دينية صوفية معاً. وسُمِّيت

---

(١) المقصود بالمقدمات والقضايا والبراهين الفلسفية عمومًا طرق الإستدلال المنطقية المستندة إلى العقل.

(٢) العصر الهليني هو العصر الإغريقي الروماني المختلط الذي تلى العصر الإغريقي الخالص ويبدأ بعد وفاة الإسكندر المقدوني وتمزق امبراطوريته. والهيليني نسبة إلى هيلين (**Hellene**) أي الإغريق أو اليونانيين. وقد سادت في هذا العصر الذي امتد من القرن الرابع قبل ميلاد المسيح إلى القرن السابع بعد ميلاده المدارس الفلسفية التالية. العرفانية (الغنوصية الرواقية المتأخرة، الابيقورية ـ الشك، الأفلاطونية المحدثة).

(٣) ملحق موسوعة الفلسفة/ د. عبد الرحمن بدوي/ ص٧٠: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ١٩٩٦م.

(٤) بنية العقل العربي/ محمد عابد الجابري ص٢٥٣ / مركز دراسات الوحدة العربية ط٢ / ١٩٨٧م.

بهذا لأن شعارها هو أن بداية الكمال معرفة الإنسان نفسه [١] ، أما معرفة الله فهي الغاية والنهاية. واهتمام الغنوصيين إنما هو بالكمال ويمكن بلوغ الكمال بواسطة المعرفة (Gnoses) والغنوص يتم بوصفه عرفاناً بالإنسان وهذا العرفان يفضي إلى عرفان الله. والعرفان بالله هو المؤدي إلى النجاة والخلاص لأن الله هو الإنسان ولهذا فإن الغنوص هو معرفة الإنسان بنفسه بوصفه إلهاً، وهذه المعرفة تؤدي إلى نجاة الإنسان" [٢] .

إن العرفان لا يتم بالفكر والتعلم بل يتم بالجماعة عن طريق الطقوس والمراس وهو ليس معرفة بالأحوال الخارجية بل بالحقائق الباطنية، خصوصاً ما يتعلق بالتمييز بين الخير والشر، وغاية المعرفة جعل الإنسان إلهاً ، واتحاد الإنسان بالله هو المعرفة أو العرفان . . . إن الإنسان لا يستطيع أن يبلغ بنفسه الدرجات العليا من المعرفة، لذا لابد من قوة علوية هي التي تلهم هذه المعرفة العليا [٣] .

وقد ازدهرت الغنوصية عند النصارى في القرنين الثاني والثالث الميلاديين واتجهت الآراء بعد ذلك لتحليلها ـ فكانت غالب التوجهات تنزع إلى القول أنها تزاوج بين المسيحية والفلسفة اليونانية. وذهب البعض إلى أنها نزعة قائمة بذاتها يتجلى فيها فهم جديد تماماً للعالم والإنسان من خلال معرفة الإنسان بنفسه، فإذا ما عرف نفسه تماماً عرف أنها هي الإله.

وبعد المعرفة الفلسفية الإشراقية الغنصوية ترتيباً،وقبلها تأريخاً، يعود البحث ليرى ـ ما هي المعرفة عند أساطين الفلسفة الأوائل.

---

(١) وهذه هي مقولة سقراط المشهورة. اعرف نفسك وحولها الإسلاميون من خلال حديث موضوع : «من عرف نفسه فقد عرف ربه» .

(٢) موسوعة الفلسفة ٢ / ٨٦ د.عبد الرحمن بدوي ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

(٣) المصدر السابق ٢ / ٨٨ .

المعرفة عند الفلاسفة

[١] المعرفة في المدرسة الرواقية : (١)

بحث الرواقيون في الأسس التي تقوم عليها المعرفة وفي مصادر المعرفة وفي المعيار الذي يتخذ من أجل التمييز بين المعرفة الصحيحة والمعرفة الباطلة... واستنتجوا أن المحسوسات هي الأصل في كل معرفة ويفسرون الإحساس في هذه الحالة تفسيراً مادياً بأن قالوا: إن الإحساس هو انطباع أثر المحسوس في النفس وفكرة الانطباع هذه أخذت بمعناها المادي الصرف حتى أن (كليانتس) (وهو أحد مؤسسي الرواقية اليونانية) شبه هذا الانطباع بأنه كانطباع نقش الخاتم على الشمع تماماً.

ويقول الرواقيون بوجود مصدر آخر للمعرفة وهو التذكر، فإن الإنسان بعد أن يجمع عدة تصورات حسية يتكون له عنصر تصور كلي غير أن هذا التصور الكلي ليس غير مجموعة من التصورات الحسية الصرفة، فهنا نجد أن المذهب يسير منطقياً مع نفسه ولكنهم خرجوا عن المنطق(٢) عندما قالوا بوجود تصورات كلية لا مادية خارجة عن كل موضوع خارجي كمان أنها خارجة عن التعبير عنها باللفظ(٣). وهذه التصورات تنسجم أكثر مع المدرسة المشائية (٤).

---

(١) المدرسة الرواقية مدرسة فلسفية يونانية أسسها زينون ومنها انتقلت إلى روما في القرن الثاني قبل الميلاد ترى أن ماهية الإنسان جزء من الوحدة الجامعة بين الله والطبيعة وأن الكون تسري فيه روح كلية وأن خالق هذا الكون ليس مفارقاً له بل كامن فيه وبهذا تكون أول من بذر عقيدة وحدة الوجود. (الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب و١٢/١٠٧ـ دار الندوة العالمية للشباب الإسلامي). ومن مؤسسيها في الدور الأول زينون ثم كلياتتس وأخيراً كريسيفوس أما رواقيه الدور الثاني ـ الرومانية أو الجديدة فيمثلها شخصيات رومانية مثل ابكتاتوس، سينكا ثم ماركس اورليوس. (موسوعة الفلسفة ٢ / ٥٢٨ باختصار).

(٢) خرجوا عن منطق مذهبهم وهذا ما أدى بهم إلى القول بوحدة الوجود.

(٣) موسوعة الفلسفة باختصار ٢ / ٥٣٠+٥٣١ .

(٤) المشائي هو الأرسطي سمي مشائياً لأن أرسطو كان يلقي دروسه على تلاميذه ماشياً . انظر المعجم الفلسفي/ جميل صليبا ٢/٣٧٣ دار الكتاب اللبناني ١٩٨٢.

والأمر شبيه بهذا عند أفلاطون حيث يحشد أساليب ومناهج في محاوراته ولكن أهمها الذي نطلق عليه المنطق الجدلي الذي يصف حركة المعرفة من خلال مراتبها الأربع: (الصور المحسوسة- التعريف ـ الماهية ـ العلم). ولكن هذه العمليات لا تصل وحدها إلى معرفة المقصد الأسمى (الخير بالذات) إذ أن ذلك (أي معرفة المقصد الأسمى الذي هو الخير بالذات) إنما يتم بطريق الحدس[١].

أما أرسطو فيقول في محاورة التفاحة [٢]: "والنفس لا تجد لذاتها الحقيقية إلا في الفلسفة التي هي الأمر الإلهي في النفس وليست تجد سرورها في المظلم فهي نور محض ينبعث إلى مدى بعيد... ومن عرف نفسه في هذه الحياة كفلت له هذه المعرفة أن يدرك كل شيء بعلم خالد أي أن يكون هو نفسه خالداً[٣].

يقول أفلوطين [٤]: "إني ربما خلوت بنفسي وخلعت بدني جانبا وصرت كأني جوهر بلا بدن فأكون داخلا في ذاتي راجعاً إليها خارجاً من سائر الأشياء فأكون العلم والعالم و المعلوم جميعاً، فأرى ذاتي من الحسن والبهاء والضياء ما أبقى له متعجبا بهتا، فأعلم أني جزء من أجزاء العالم الشريف الفاضل الإلهي ذو حياة فعالة، فلما أيقنتُ ذلك ترقيتُ بذاتي من ذلك العالم إلى العالم الإلهي

---

(١) فكرة الألوهية عند أفلاطون./ د. مصطفى النشار ص١٩٨ الدار المصرية السعودية ط٤ / ٢٠٠٥.

(٢) تسمى هذه المحاورة كتاب التفاحة لأن أرسطو كان في أثنائها يمسك بيده تفاحة يستنشق منها آخر ما بقي من أنفاسه إذ أنها آخر محاوراته قبل موته.
وبعض مؤرخي الفلاسفة يعتبرون كتاب التفاحة ليس لأرسطو إنما لسقراط يقول. د. محمد عبد الهادي أبو ريده أنه رأى مختصر كتاب التفاحة لسقراط وذكر شيئاً مثل هذا الفيلسوف الحديث دافيد سانتلانا في كتابه المذاهب اليونانية الفلسفية، ويشير أبو ريده إلى هذا الكتاب على أنه مخطوط لكنه طبع لاحقاً بتحقيق وتقديم محمد جلال شرف ـ في دار النهضة العربية/ مصر/ ١٩٨١م.

(٣) تاريخ الفلسفة في الإسلام/ ت.ج. دي بور/ تعريب د. محمد عبد الهادي أبو ريده/ ص٤٥ دار النهضة العربية ١٩٨١.

(٤) أفلوطين هو أحد كبار الفلاسفة الذين أحدثوا تغيرات هامة على فلسفة من سبقهم وإليه تنسب الأفلاطونية المحدثة/ ولد بمصر عام ٢٠٥/٢٠٣ م، وتوفي عام ٢٧٠ م/ انظر موسوعة الفلسفة ١/ ١٩٦.

فصرت كأني موضوع فيه متعلق به فأكون فوق العالم العقلي كله. . .فأرى هنالك من النور والبهاء ما لا تقدر الأنفس على صفته ولا تعيه الأسماع [١] .

وبمثل هذا قال الغزالي (الفيلسوف) حسب وصف عبد الحليم محمود له :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

ولكن بعد أن شك دهراً من الزمن فيحكي الغزالي أنه قبل كتابة كتابه (المنقذ من الضلال) عانى من فترة شك طويلة ، ثم لما هداه الله، هداه لطريق التصوف ونقد في هذا الكتاب (المنقذ من الضلال) أصناف الطالبين وهم : أهل علم الكلام، وأهل الفلسفة، والباطنية ورد عليهم جميعا ورأى أن خير الطرق وأسلمها طريق أهل التصوف الذي اختاره بعد فترة شك دامت عشر سنين حسب قوله [٢] .

يقول الغزالي: . . . إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقتهم أحسن الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا لذلك سبيلاً فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به. وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة طريقتها وهي أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله ، لا في المطاعم ولا في المشارب ولا في اللذات الحسية. . . والنفس العاقلة تصبوا إلى الخلاص من عالم الحواس ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب في ذكر الله. وآخرها الفناء بالكلية في الله. . . ومن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون

---

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام / أبو ريده/ص٤٦ .

(٢) المنقذ من الضلال ص١٢٧ .

منهم فوائد[١] .

وقد عاش الغزالي مثل هذه الحالات فقال بيت الشعر الذي مر قبل قليل.

وبعد: فإن الكشف الصوفي والمعرفة الصوفية والحدس الفلسفي والعرفان الغنوصي أسماء تمثل المعرفة عند الجميع.

وهذه المعرفة إذن ليست معرفة كسبية إنما هي (كما يراها القوم) ذوق ومشاهدة، كشف للحجب، اتصال بين الذات والموضوع، اتحاد بين العاشق والمعشوق. استغراق بين العارف والمعروف يصل إليها الإنسان عن طريق الخلوة والرياضة والمجاهدة.

إنها أخص خصائص التصوف، إنها الشعور الذي لا يمكن التعبير عنه كما يقولون فإن الإنسان يصل فيها إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق أو الكتابة أو التعبير.

فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه" [٢] .

الاستدلالات لصحة طريق المعرفة غير الكسبية:

لقد عبر الصوفية عن هذه المعرفة غير الكسبية بالذوق والكشف ـ التجلي ـ والمشاهدة وما إلى ذلك وساروا في ذلك سيرة الفلاسفة، ولكنهم على أية حال فلاسفة في ظل دين، ولقد حاولوا إقحام هذه الفلسفة والتمسوا لأنفسهم ما يحاولون به أن يثبتوا شرعية طريقتهم.

وذهبوا مذاهب شتى لمحاولة إيجاد مستندات شرعية لها بدءاً من تحنثه ﷺ بغار حراء قبل بعثته هذا التحنث الذي يصفه عبد الحليم محمود فيقول (... حيث الخلوة التامة، والتجرد المطلق، عن كل ما سوى الله وهناك في سجوة الليل أو رابعة النهار يحاول محمد أن يحطم الحجب وأن يخترق المساتير وأن ينفذ

(١)المنقذ من الضلال/ للغزالي مع تعليقات عبد الحليم محمود/ ص١٢٧ .

(٢)أبحاث في التصوف ـ ملحق مع المنقذ من الضلال/ عبد الحليم محمود ص٢١٧ .

ببصيرته إلى عالم الغيب) .

و هذه المسألة لا تصح دليلاً لسببين:

الأول :أن هذا التحنث كان قبل بعثته ﷺ وسلوكه قبل البعثة يمثل حالة شخصية لا يمكن اعتبارها دليلاً شرعياً.

الثاني: لو فرض أن الخلوة والتجرد ومحاولات استدرار المعرفة التي يجريها التصوف هي تأسٍّ به ﷺ لكان هذا الفرض دليلاً عليهم لا لهم حيث يحاولون تقليده باستدرار معاني النبوة. واستقبال الوحي، ولا يقولن قائل أنهم لم يقصدوا ذلك .نعم هم لم يصرحوا به لكنهم قصدوه [١]. فهذا التيجاني يزعم أنه يأتيه الإلهام بتصحيح أحاديث أو تضعيفها كما نقله عنه تلميذه علي حرازم.

وقبله قال ذلك ابن عربي في «الفتوحات » و في «الكبريت الأحمر» . قال ابن عربي: فعُلِمَ أنه ما بقي للأولياء إلا وحي الإلهام على لسان ملك مغيب لا يشاهد فيعلمهم بصحة حديث قيل بتضعيفه أو عكسه من طريق الإلهام من غير شهود الملك إذ لا يجمع بين شهود الملك وسماع خطابه إلا الأنبياء وأما الولي فإن سمع صوتاً لا يرى صاحبه وإن رأى الملك لا يسمع له كلاماً [٢] .

وقبله قال أبو يزيد ـ أخذتم دينكم ميتاً عن ميت ونأخذ عن الحي الذي لا يموت. وتأثراً بأبي يزيد قال أبو حامد: " لقد كتب فاطر السموات والأرض نسخة العالم في اللوح المحفوظ، وسطر فيه حقائق الأشياء كلها وقلب العبد كالمرآة أمام هذا اللوح، فإذا ما جلي وأزيل منه صدأ الشهوات والعوائق أصبح قابلاً لانعكاس حقائق اللوح المحفوظ عليه فينفجر فيه العلم عندئذ [٣] .

---

(١) بل اعتبروا دهاقنتهم أعلى مرتبة من الأنبياء حيث قال قائلهم:

مقام النبوة في برزخ فويق الرسول وتحت الولي

(٢) الكبريت الأحمر بهامش اليواقيت والجواهر ص٣٣-٣٤ .

(٣) الإحياء ٣ / ٢١ .

ثم استدلوا بحديث: اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله [١] .

و رغم ضعف سند هذا الحديث، فإن الفراسة أمر لا منازعة فيه. لكن المنازع فيه ليّ أعناق النصوص، لتتحول إلى الدلالة على استكمال الوحي ولو حاول الصوفية أن يظهروا بعض الفروق بينه وبين وحي الرسالة كما مر، فهذا الشعراني ينقل عن ابن عربي من الباب السادس والستين وثلاثمائة من كتاب الفتوحات المكية قوله: « جميع ما أتكلم به في مجالسي وتآليفي إنما هو من حضرة القرآن العظيم. فإني أُعطيتُ مفاتيح العلم فلا استمد قط في علم من العلوم إلا منه ».

وقال في نفس الباب: « جميع ما أكتبه في تصانيفي ليس هو عن فكر ولا روية وإنما هو عن نفث في روعي من ملك الإلهام » [٢] .

و استدلوا بحديث أبي هريرة رضي الله عنه بخصوص عمر: وهو قوله ﷺ قد كان يكون في الأمم قبلكم مُحدّثون فإن يكن منهم من أمتي أحدٌ فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه منهم)[٣] .

وقد وردت عدة أحداث تؤكد هذا المعنى في سيرة عمر رضي الله عنه .

كندائه سارية من على منبره في المدينة وسماع سارية ذلك الصوت. أو موقفه من أسرى بدر، أو طلبه من الرسول الكريم ﷺ عدم الصلاة على المنافقين ومثل هذه الحالات لا ينكرها أحد من أهل السُّنَّة أصلاً.

وأهل السُّنَّة متفقون على القول بجواز حصول الكرامة في هذه الأمة. ولكن الذي يفعله الصوفية هو تغيير مفهوم هذه الكرامة لتصبح استسخافا لعقول الناس. وهذا مثلٌ على ذلك.

نقل الخفاجي في النفحات الأحمدية: أن أحد الصوفية غطس في النيل

---

(١) الحديث ،قال محقق جامع الأصول في سنده عطية العوفي وهو ضعيف.

(٢) اليواقيت والجواهر ٢ / ٢٥ - ٢٦ / نقلاً عن الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسُّنَّة ، للشيخ عبد الرحمن عبد الخالق ص ٢٦٨ - ط ٥ ، ١٩٩٣م ، دار الحرمين للطباعة .

(٢) الحديث متفق عليه وهذه رواية مسلم في صحيحه ٤ / ١٨٦٤ .

فرأى أنه تزوج في بغداد وعاش هناك سبع سنين وأنجب أولاداً ثم خرج من تلك الغطسة. فرأى ثيابه على شاطئ النيل بجهة مصر العتيقة فلبسها والمؤذن يؤذن لصلاة الجمعة ولم يلبث أن أتي بأولاده وأمهم من بغداد [١] ، فعرفهم وعرفوه ، وأقره العلماء على ذلك النكاح [٢] أهـ .

ومن الكرامات التعبدية ــ ما ذكره صاحب بوارق الحقائق[٣] : رأى العارف البجلي رسول الله ﷺ في المنام فقال يا رسول الله علمني شيئاً فقال له عليه الصلاة والسلام: (وقوفك بين يدي وليّ لله كحلب شاة أو كشَيٍّ بيضة خير لك من أن تعبد الله حتى تتقطع إربا إربا). قال: (البجلي) حيًا كان أو ميتاً ؟ ، قال رسول الله ﷺ : (حياً كان أو ميتاً).

والخلاصة : أنهم يستدلون بحق ليثبتوا به باطلاً فأدعيتهم في أغلب الطرق الصوفية تلقوها بإلهامات أو عن الرسول ﷺ يقظة أو مناماً وأصبحت هذه الأدعية هي المعمول بها في الطريقة. وما ذلك إلا لإبعاد الناس عن الدين ، وعن العلم الشرعي الصحيح.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك: مقدمة كتاب فصوص الحكم حيث قال فيها ابن عربي: " ... فإني رأيت رسول الله ﷺ في مبشرة أُريتُها في العشر الأخير من محرم لسنة سبع وعشرين وستمائة، فقال لي رسول الله ﷺ هذا كتاب فصوص الحكم اخرج به على الناس ينتفعون به فقلت: السمع والطاعة لله ولرسوله وأولي الأمر منا كما أمرنا، فحققت الأمنية وأخلصت النية وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب كما حده لي رسول الله ﷺ من غير زيادة ولا نقصان، ... لا أنزل في هذا المسطور إلا ما يُنَزَّل علي ولست بنبي ولا وارث

---

(١) أولئك الأولاد الذين رأى أنه تزوج أمهم وأنجبهم أثناء الغطسة.

(٢) النفحات الأحمدية ص٣٥+٣٦، والنص منقول عن كتاب موازين الصوفية في ضوء الكتاب والسُّنَّة/ علي بن السيد أحمد.

(٣) بوارق الحقائق ص٢٢٣ / بهاء الدين محمد مهدي الشيوخي الملقب بالرواس/ مكتبة التاج/طرابلس الغرب/ليبيا ، ٢٠٠١ .

ولكن لآخرتي حارث فمن الله فاسمعوا وإلى الله فارجعوا » [١] .

وبعد أن قدم المؤلف أنه إنما يكتب بأمر الله تعالى ورسوله ﷺ عقد فصلاً بعنوان (فص حكمة إلهية في كلمة آدمية) بين فيه أن الحق تبارك وتعالى تجلى بنفسه لنفسه فكان آدم، فآدم هو الصورة الإلهية الجامعة لحقائق الوجود. فقال بالنص ما يلي :

لما شاء الحق من حيث أسماؤه الحسنى التي لا يبلغها الإحصاء أن يرى أعيانها (كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أعرف)[٢] وإن شئت قلت :أن يرى عينه في كون جامع يحصر الأمر ويظهر به سره إليه، فإن رؤية الشيء نفسه بنفسه ما هي مثل رؤية نفسه في أمر آخر يكون له كالمرآة فإنه يظهر له نفسه في صورة يعطيها المحل المنظور فيه مما لم يكن يظهر له، من غير وجود هذا المحل ولا تجليه.

وقد كان الحق أوجد العالم كله وجود شبح مسوى لا روح فيه فكان كمرآة غير مجلوة ومن شأن الحكم الإلهي أنه ما سوى محلاً إلا ولابد أن يقبل بالنفخ فيه، وما هو إلا حصول الاستعداد من تلك الصورة لقبول الفيض التجلي الدائم الذي لم يزل ولا يزال .وما بقي إلا قابل والقابل لا يكون إلا من فيضه الأقدس[٣].

هذه نماذج من المعرفة الصوفية والإلهام الصوفي، والنطق عن الله ورسوله.

وإذا كان الصوفية والفلاسفة قد التقوا في هذه المعرفة الغنوصية غير المكتسبة، والتي تقع كالشعاع أو كالنور أو كانعكاس عبر مرآة إلى قلب العارف فإنهم قد اختلفوا في نقطة هامة حري بالبحث أن لا يهملها ، وهي أن الفلاسفة لم يذموا العلم وإن رأوه عاملاً أقل أهمية عند الإشراقيين وأكثر أهمية عند غيرهم .

---

(١) شرح فصوص الحكم لابن عربي / تأليف مصطفى بن سليمان بالي زاده الحنفي المتوفى ١٠٦٩هـ دار الكتب العلمية ــ بيروت لبنان ط١ ٢٠٠٢ ص١٣-١٥ .

(٢) هذا لفظ حديث موضوع ــ ذكره السيوطي في الدرر المنتثرة وانظر تذكرة الموضوعات.

(٣) متن نص حكمة إلهية في كلمة آدمية ــ المصدر السابق ص ١٨-٢٢ .

أما الصوفية فرغم دعواهم العريضة للتمسك بالكتاب والسُّنَّة فالواضح من منهجهم عقد خصومة مع العلم الحقيقي.

ولما كان شأن هذا البحث أن يدلل على كل مسألة فإنه خصص مبحثا لموقف الصوفية من العلم المكتسب (الصحيح).

obeikandl.com

موقف الصوفية من العلم

مقدمة:

لقد حث ديننا الحنيف على العلم عموماً وعلى العلم الشرعي خصوصاً ، فمن أول توجيهات الباري إلى رسوله الكريم ﷺ وإلى أمته من بعده قوله تعالى: ﴿ **اقْرأْ باسْمِ ربِّكَ الَّذي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنسانَ منْ علَقٍ (٢) اقْرأْ وربُّكَ الأكْرَمُ (٣) الَّذي علَّمَ بالْقَلَمِ (٤) علَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (٥)** ﴾[العلق : ١ – ٥] .

وبين سبحانه وتعالى أن أهل الإيمان هم أهل العلم الراسخون فيه، فقال تبارك وتعالى: ﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا** ﴾[آل عمران : ٧].

ووصف سبحانه وتعالى الراسخين بالعلم من أهل الكتاب بأنهم يؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ فقال تعالى فيما ذكر عن أهل الكتاب: ﴿ **لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ** ﴾ .

[النساء : ١٦٢].

وبين سبحانه تبارك وتعالى أن أهل خشية الله هم العلماء فقال تبارك وتعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾[فاطر : ٢٨] .

ونبه المولى تبارك وتعالى إلى عدم مساواة العلماء بغيرهم ــ فجاءت الآية الكريمة باستفهام استنكاري: ﴿ **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ** ﴾[الزمر : ٩] .

ومدح الذين أوتوا العلم فقال تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١)** ﴾[المجادلة : ١١] .

وأظهر بعض مشايخ الصوفية أهمية التمسك بالعلم ـ علم الكتاب والسُّنَّة ـ وطالبوا بالاقتداء بهما، فقد نقل عن الجنيد أنه قال: "علمنا مضبوط بالكتاب

والسُّنَّة ومن لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث ولم يتفقه فلا يُقتَدَى به" (١) .

وقال أحمد بن أبي الحواري: " من عمل عملاً بلا إتباع سنة رسول الله ﷺ فباطل عمله"(٢) .

وقال الحارث المحاسبي: " كل أمر لاح لك ضوؤه بمنهاج الحق فاعرضه على الكتاب والسُّنَّة والآداب الصالحة"(٣) .

وقال أبو عثمان النيسابوري: "من أمَّرَ السُّنَّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة"(٤) .

وقال أبو سليمان الداراني: "ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسُّنَّة" (٥) .

ونقل عن ذي النون قوله: " من علامات المحب لله عز وجل متابعة حبيب الله ﷺ في أخلاقه وأفعاله وأوامره وسُننه"(٦) .

ولكن هذه الأقوال على ندرتها لم يتم الالتزام بها منهجاً عند أصحاب هذا الاتجاه، إذ غلب عليهم القول بالذوق والمواجيد والكشف،ونطقوا بالفلسفة والإشارات.

---

(١) حلية الأولياء/ الأصبهاني/ ١٠-٢٥٥ .

(٢) الاستقامة/ شيخ الإسلام ابن تيمية ٢-١٤١ .

(٣) رسالة المسترشدين ـ للحارث بن أسد المحاسبي ت ٨٢: عبد الفتاح أبو غدة ـ مكتب المطبوعات الإسلامية حلب ط٦ ـ ١٩٨٥م .

(٤) الاستقامة١/٥٣ .

(٥) الرسالة القشيرية ٧٩ .

(٦) الرسالة القشيرية ٦٥ ، ولكن ذا النون كان يشتغل بالكيمياء والفلسفة ونسب إلى السحر وأخذ إلى بغداد بتهمة الزندقة ,قال عنه ابن النديم في الفهرست :أخذ الكيمياء عن جابر ابن حيان .وقال ابن خلكان : أنه كان من الملامتيةالذين يخفون تقواهم ويظهرون الاستهزاء بالدين .وذكرت الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب أنه تأثر بعقائد الإسماعيلية الباطنية وأخوان الصفا بسبب صِلاَته القوية بهم. . .ويعد من أوائل من وقفوا على الثقافة اليونانية ومذهب الإفلاطونية الجدَيدة وبخاصة ثيولوجيا أرسطو في الإلهيات انتهى كلام الموسوعة ١ / ٢٥٨-٢٥٩ .

ومن الأمثلة على عدم الالتزام بمتابعة العلم ما يلي:

مرّ في الأسطر القليلة السابقة قول الحارث المحاسبي: "كل أمر لاح لك ضوءه بمنهاج الحق فاعرِضْهُ على الكتاب والسُّنَّة".

والقارئ لكتاب رسالة المسترشدين (للمحاسبي) الذي جاء فيه هذا القول يرى أن هذه الرسالة بكاملها اشتملت على تسعة وثلاثين حديثاً فيها أكثر من ٢٠ حديثاً ضعيفًا، وفيها ما ليس بحديث وذكره المؤلف على أنه حديث، أما في كتابه (النصائح) فقد أكثر من الاستشهاد بما أوحى الله إلى موسى وعيسى وبأقوال نُسبت إلى الله تعالى في كتب إلهية غير القرآن والإنجيل والتوراة. ومن ذلك قوله: "بلغنا أن الله عز وجل أوحى إلى موسى عليه السلام، يا موسى لا تركن إلى حب الدنيا فلن تأتيني بشر هو أشد عليك من حب الدنيا" (١).

وبلغنا أن عيسى عليه السلام قال: يا معشر الحواريين الغنىَ مَسَرَّة في الدنيا مضرة في الآخرة"(٢). وأقول: "لا يدخل الأغنياء في ملكوت السماوات (٣) لحقارتهم على الله ـ وهذا القول الذي نسبه لنفسه هو من الأقوال المنسوبة لعيسى عليه السلام في الإنجيل ـ مع إضافة من عنده، وبلغنا أن الله أوحى إلى داوود عليه السلام قال: «يا داود لا تَسْتَشِر في أمرك من أسكرته الدنيا فيقطعك سُكْرُه عن محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين لي»(٤) وبلغنا أن عيسى عليه السلام قال: «يا علماء السوء تصومون وتصلون وتتصدقون ولا تفعلون ما تؤمرون»... وهو نص طويل يزيد على صفحة ونصف الصفحة يقول في آخره: (ويحك إن جمع المال لأعمال البر مكر من الشيطان) (٥).

---

(١) النصائح ص١٣.
(٢) نفس المرجع والصفحة.
(٣) نفس المرجع.
(٤) نفس المرجع ص١٧.
(٥) نفس المرجع ص ٣٠.

وقال موسى عليه السلام : " يارب جعلت رزقي عند بني إسرائيل هذا يعشيني وهذا يغذيني فقال له ربه: كذا فعلي بمن يعز علي، وأُدخل الآخر على البطالين بسبب ذلك[١] .

" وبلغنا أن الله تبارك وتعالى قال: من رضي بقضائي وحكمي وقدري فله الرضا ومن سخط رضائي وحكمي وقدري فله السخط" [٢] .

والحارث المحاسبي من معاصري الإمام أحمد بن حنبل، وعلم من أعلام التصوف الذي يسميه البعض « تصوفًا سُنِّيًا » مقابل التصوف الفلسفي، وإن كان البحث لا يرى هذه التفرقة ومعلوم أن الإمام أحمد بن حنبل قاطع المحاسبي ونهى عن مجالسته.

وفي الجهة المقابلة اجتهد الصوفية وأكثروا من ذم طلبة العلم والعلماء ونَفَّروا الناس عنهم، ولقد مرت فترة من الزمن كان طلبة العلم فيها يخشون هؤلاء الصوفية، فقد نقل ابن الجوزي في كتابه الموسوم (تلبيس إبليس) عن عبد الله بن خفيف قال: " اشتغلوا بتعلم العلم ولا يغرنكم كلام الصوفية فإني كنت أخبئ محبرتي في جيب مرقعتي والكاغد[٣] في حزة سراويلي، وكنت أذهب إلى أهل العلم، فإذا علموا بي خاصموني وقالوا لا تفلح ثم احتاجوا إلي بعد ذلك" [٤] .

ونقل عن جعفر الخلدي قوله: لو تركني الصوفي ـ لجئتكم بإسناد الدنيا، لقد مَضِيتُ إلى عباس الدوري وأنا حَدَث فكتبتُ عنه مجلساً واحداً وخرجت من عنده، فلقيني بعض من كنت أصحبه من الصوفية فقال: إيش هذا معك ؟ فأريته إياه ، فقال: ويحك تدع علم الخرق وتأخذ علم الورق، ثم خرق الأوراق [٥] .

---

(١) نفس المرجع ص ٣٨ .
(٢) نفسه ٥٢ .
(٣) الكاغد : فارسية تعني الورقة.
(٤) تلبيس إبليس ٣١٩ .
(٥) نفس المرجع ٣١٨ .

وروي عن أبي بكر الشبلي أنه كان ينشد:

إذا طالبوني بعلم الورق خرجت عليهم بعلم الخرق[١]

ونقل ابن عربي صاحب الفتوحات عن أبي مدين: أنه كان إذا قيل له فلان عن فلان عن فلان يقول: ما نريد أن نأكل قديداً، هاتوا ائتوني بلحم طري. علق ابن عربي: يرفع همم أصحابه... أي حدثوا عن ربكم واتركوا فلاناً وفلانا[٢].

وقال ابن عربي: " وما خَلَقَ الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهي الذي منحهم أسراره في خلقه وفَهَّمَهُم معاني كتابه وإشارات خطابه فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسل عليهم السلام"[٣].

وقال أيضاً: " فلما رأى أهل الله أن الله قد جعل الدولة في الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم وأعطاهم التحكم بما يفتون وألحقهم بالذين ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم : ٧] ، وهم في إنكارهم على أهل الله ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٤] ، سَلَّم أهل الله لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا، وصانوا عنهم أنفسهم بتسميتهم الحقائق إشارات"[٤].

ونقلوا عن الفضيل[٥] قوله: " تباعد من القراء، فإنهم إن أحبوك مدحوك بما ليس فيك وإن أبغضوك شهدوا عليك وقُبِلَ منهم"[٦].

---

(١) نفس المصدر ٣١١ .

(٢) الفتوحات المكية ، ١/ ٣٥٢ ، طبعة دار إحياء التراث العربي ١٩٩٨م .

(٣) الفتوحات المكية ، لأحمد بن عبد الله الطائفي الحاتمي المشهور بابن عربي/ ١ / ٣٥١ ، ط١ ١٩٩٨ دار إحياء التراث العربي لبنان.

(٤) المصدر السابق ١ / ٣٥٢ .

(٥) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي توفي سنة ١٨٠هـ. عده أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية على رأس الطبقة الأولى منهم.

(٦) طبقات الصوفية للسلمي ص١١ ط٢ ، ١٩٨٦م ، دار الكتاب النفيس سوريا حلب.

وذكر أبو حامد الغزالي عن بشر بن الحارث قوله: "(حدثنا) باب من أبواب الدنيا ، فإذا سمعت الرجل يقول حدثنا فإنما يقول أوسعوا لي ونسب إلى الثوري قوله: " فتنة الحديث أشد من فتنة الأهل والمال والولد" (١) .

وقال أبو سليمان الداراني: "إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا"(٢) ، وبمثل هذا قال أبو بكر الوراق(٣) .

وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري : نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا فقال: وفيم رغبت؟ قالت في الحديث (٤) .

وعد أبو طالب المكي من نظر إلى قول مفسر يسكن إلى العلم الظاهر أو يرجع إلى عقله أو يقضي بمذاهب أهل العربية واللغة في باطن الخطاب من المحجوبين(٥) .

وقال الحارث المحاسبي: بلغني عن بعض الصحابة أنه قال: " لو أن رجلاً من السلف الصالح نشر من قبره ثم نظر إلى قرائكم ما علمهم، ولقال لسائر الناس، ما أظن هؤلاء من يؤمن بيوم الحساب" (٦) .

وقال ابن عربي في الباب الحادي والأربعين من الفتوحات: يقول الله عز وجل في بعض الهواتف الربانية: " يا عبدي الليل لي لا للقرآن يتلى، ﴿ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴿٧﴾ ﴾ [المزمل : ٧] فاجعل الليل كله لي وما طلبتك إذا تلوت القرآن بالليل لتقف على معانيه فإن معانيه تفرقك عن المشاهدة فآية

---

(١) إحياء علوم الدين ــ أبي حامد الغزالي ١ / ٦١ ط دار المعارف ــ لبنان.
(٢) نفس المصدر.
(٣) مظاهر الانحرافات العقدية عند الصوفية ١ / ٩٦ ، إدريس محمود إدريس مكتبة الرشد ــ الرياض ط . ٢ ، وأصل الكتاب رسالة ماجستير.
(٤) الإحياء ٣ / ٢٣٧ .
(٥) قوت القلوب ١ / ٧٤ .
(٦) النصائح / الحارث المحاسبي ص / ١١ مؤسسة قرطبة.

تذهب بك إلى جنتي وما أعددت فيها لأوليائي... وآية تذهب بك إلى جهنم فتعاين ما فيها من أنواع العذاب فأين أنا إذا كنت مشغولاً بما فيها، وآية تذهب بك إلى قصة آدم أو نوح أو هود أو صالح أو موسى أو عيسى عليهم الصلاة والسلام. وهكذا، وما أمرتك إلا لتجتمع بقلبك علي" (١).

لطائف في علم القوم:

قال الشيخ: (ابن عربي) وحكي عن سهل بن عبد الله عالمنا وإمامنا أنه قال: "لقيت إبليس فعرفته وعرف مني أني عرفته فوقعت، بيننا مناظرة، فقال لي وقلت له وعلا بيننا الكلام وطال النزاع، بحيث أنه وقف ووقفت وحار وحرت، فكان من آخر ما قال لي يا سهل: إن الله تعالى يقول: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ فعَمَّمَ، ولا يخفى عليك أنني شيء بلا شك لأن لفظة كل تقتضي الإحاطة والعموم وشيء أنكر النكرات، قد وسعتني رحمته. قال سهل: فوالله لقد أخرسني وحيرني بلطافة سياقه وظفره بمثل هذه الآية.... قال الشيخ محي الدين (ابن عربي): واعلم رحمك الله أني تتبعتُ ما حُكِيَ عن إبليس فما رأيتُ أقصر منه حجة ولا أجهل منه بين العلماء، فلما وقفت على هذه المسألة التي حكاها عنه سهل تعجبت وعلمت أنه قد علم علماً لا جهل فيه فهو أستاذ سهل في ذلك والله أعلم (٢).

وقال الحسين بن منصور الحلاج(٣): (تناظرت مع إبليس وفرعون في باب الفتوة فقال إبليس: إن سجدت سقط مني اسم الفتوة، وقال فرعون: إن آمنت

---

(١) الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر/ بهامش اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر تأليف الشيخ عبد الوهاب الشعراني ص٥٢٥٣ دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي ط١ ١٩٩٧ بيروت لبنان.

(٢) المصدر نفسه ص٣٣٨-٣٣٩، وإذا كان ابن عربي قد أقر أن إبليس هو أستاذ سهل. وأقر هو لسهل بالإمامة والعلم كما في بداية النص فهذا اعتراف صريح منه أن إبليس أستاذه.!!

(٣) هو الحسين بن منصور الملقب بالحلاج، المكنى بابي مغيث من مواليد طوس ـ مدينة البيضاء من مدن بلاد فارس حوالي ٢٤٤ وهوالمصلوب على الزندقة ٣٠٩هـ.

أُسقِطت من منزلة الفتوة وقلت أنا: إن رجعت عن دعواي وقولي سقطت من باب الفتوة).

وقال إبليس: أنا خير منه حين لم ير غيره غيرا، وقال فرعون: ما علمت لكم من إله غيري ؟،حين لم يعرف من قومه من يميز بين الحق والباطل وقلت أنا: إن لم تعرفوه فاعرفوا أثره، وأنا ذلك الأثر وأنا الحق لأني مازلت أبداً بالحق حقا. فصاحبيَّ وأستاذيَّ إبليس وفرعون، وإبليس هدد بالنار وما رجع عن دعواه، وفرعون أغرق في اليم وما رجع عن دعواه ولم يقر بالواسطة إليه وأنا إن قتلت وقطعت يداي ورجلاي ما رجعت عن دعواي)[١].

هذا هو الشعور الصوفي تجاه العلم والتعلم إنه بزعمهم عن الله مباشرة وهذه بعض النتائج التي أدى إليها مثل هذا العلم الرباني ، الأستاذية لإبليس وفرعون، والابتعاد عن القراء والمحدثين.

ويقرهم مثل أبي حامد فيقول: " فاعلم أن ميل أهل التصوف إلى العلوم الإلهامية دون التعليمية، فلذلك لم يحرصوا على دراسة العلم وتحصيل ما صنفه المصنفون... بل قالوا الطريق تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى" [٢].

وأخيراً: يقول عبد الكريم الجيلي في كتابه الإنسان الكامل: "ولقد اجتمعت بأفلاطون[٣]، الذي يعده أهل الظاهر كافراً فرأيته وقد ملأ العالم الغيبي نوراً وبهجةً ورأيت له مكانةً لم أرها إلا لآحاد من الأولياء فقلت له من أنت؟ قال: قطب الزمان وواحد الأوان، وأضاف: ولكم رأينا من عجائب وغرائب

---

(١) ديوان الحلاج ـ طاسين الأزل والالتباس ١٥٨-١٥٩- ط٢ ٢٠٠٣ دار صادر ـ بيروت لبنان.

(٢) إحياء علوم الدين ٣ / ١٩ .

(٣) وأفلاطون فيلسوف يوناني مشهور تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو من مواليد أثينا عام ٤٢٧ أو ٤٢٨ قبل ميلاد المسيح بينما عبد الكريم الجيلي من أحفاد عبد القادر الجيلاني ـ ومن مواليد ٧٦٧ هـ وبينهما هذا الدهر ويزعم أنه التقى به.

مثل هذا ليس من شرطها أن تغشى، وقد رمزنا لك وفي هذا الباب أسراراً كثيرة ما كان يسعنا أن نتكلم فيها بغير هذا اللسان فألق القشرة من الخطاب وخذ اللب إن كنتَ من أولي الألباب.

كما ذكر في كتابه أن أرسطو تلميذ أفلاطون لزم خدمة الخضر واستفاد منه علوماً جمة [١].

والخلاصة:

أن البحث قد بين أن المعرفة الصوفية والفلسفية تلتقيان على الأصول التي تعتبر أن المعرفة اليقينية الحقة لا تدرك إلا بالتأمل الباطني العميق والمجاهدة النفسية، وإذا كان الفلاسفة اليونانيون وخصوصاً الأوائل (الذين ظهرت فلسفتهم قبل ظهور عيسى بن مريم عليه السلام) لا يملكون نصوصاً شرعية توافق أو تعارض فلسفتهم، فإن الصوفية المنتسبين للإسلام اصطدموا بنصوص شرعية كثيرة واضحة جلية بينة تتعارض مع ما يذهبون.

فانطلقت دعوى إضافية زادوا فيها على الفلاسفة ومنها:

[١] إن الوقوف على ظاهر نصوص الشريعة حجاب يمنع من الوصول إلى حقائق الأمور.

الأمر الذي أدى بالقول إلى الأخذ عن الله مباشرة كما مر في فقرات سابقة، وسارت هذه المقولة بمواكبة ومساعدة المقولة الفلسفية بأن المحسات (الحسيَّات) تعطي علماً ظنياً لا يقينياً وبالنتيجة، فالعلم النقلي مستند إلى الحسيات التي لا تفيد إلا الظن بينما المشاهدة المبنية على أساس فناء الحس ترفع الظن وتزيل الشك وتؤسس معرفة يقينية هي المعرفة بالله.

ولم يكن الصوفية ليُتركوا على هذا الزعم دون معارضته علماء الإسلام الذين حاولوا الرد على هذه الدعوى التي تؤسس لهدم الدين فما كان من

---

(١) الإنسان الكامل / عبد الكريم الجيلي ٥٢/٢+٥٣ و٢ / ١١٧ دار الفكر- بيروت ـ لبنان .

الصوفية إلا أن فتحوا محوراً آخر لمعركتهم تجلى كما بينته بعض النصوص السابقة بالهجوم السافر على مصدري الدين الأساسيين ـ الكتاب والسُّنَّة ـ من خلال الهجوم على حَمَلَة هذين العلمين.

فَرَوج الصوفية للتباعد من القراء، لأنهم أهل دنيا (بزعم الصوفية) أو كما نُسِبَ للفضيل (تباعد من القراء فإنهم إن أحبوك مدحوك بما ليس فيك وإن أبغضوك شهدوا عليك وقُبِلَ منهم).

وروجوا لطلب علم حديث رسول الله على أنه طلب للدنيا، والدنيا ملعونة ملعون ما فيها. وقد مر قبل صفحات قول بشر بن الحارث وقول رابعة العدوية للدلالة على ذلك.

إن محاولة الإبعاد هذه تؤسس عند الصوفية لما تقرر سابقاً أن (المعرفة اليقينية لله) القائمة على الكشف الذي هو علم لَدُنِّيٌّ غير مكتسب ليبنى التوحيد كله على أساس هذه المعرفة. لذا سيسير البحث الآن للحديث عن التوحيد عند القوم.